يوم حنين

" يوم حنين " - ١

عـن أبى الفضـل العبـاس بـن عبـد المطلـب - رضـى اللّه عنـه - قـال " شهدت مع رسول اللّه - صلى الله عليه وسلم يوم حنين، فلزمت أنا وأبو سفيان بن الحارث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فلم نفارقه . ورسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم - على بغلة له بيضاء . فلما التقى المسلمون و المشركون ولىّ المسلمون مدبرين فطفق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يركض بغلته قبل الكفار، وأنا آخذ بلجام بغلة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- أكفهّا إرادة ألا تسرع، وأبو سفيان أخذ بركاب رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فقال رسول اللّه -صلى اللّه عليه وسلم :

" **أى عباس ، ناد أصحاب السمرة** "

قال العباس -وكان رجلاً صيتا- فقلت بأعلى صوتى: أين أصحاب السمرة ؟ فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى ؛ عطفة البقر على أولادها .

فقالوا : يا لبيك ، يا لبيك "....

(حديث صحيح : أخرجه مسلم و أحمد و آخرون).

....

تكشف لنا قصة هذا الحديث الشريف عن صورة من صور الجهاد و مواجهة الأعداء . وهذه الصورة ذات أهمية خاصة ، لأنها تضع معيار أو مقاييس الجهاد الصحيح الذي يتكلل بالنصر، والجهاد الآخر الذى لا ينتج غير الهزيمة و الآلام .

لقد استعدّ المسلمون بقيادة الرسول - صلى الله عليه وسلم - لمواجهة المشركين يوم حنين ، وكان عدد المسلمين كبيرا ، لدرجة أن قال بعضهم معجبا : لن نغلب اليوم من كثرة. أي إن كثرتنا ، وقلة أعدائنا ستجعلنا نهزمهم و ننتصر عليهم، وعندما التقى الجمعان كانت المفاجأة أن جيش المسلمين الكثير العدد بدأ كثير من أفراده يولون الأدبار، و يفرون من المعركة ، والعدو يتقدم و ينتصر... بيد أن الرسول - صلى اللّه عليه وسلم - ثبت فى مكانه وظل راسخاً صامداً وطلب من أحد مرافقيه أن ينادى على الصحابة الذين بايعوه فى الحديبية فى السنة السادسة للهجرة فانضموا إليه ومعهم آخرون ، مما جعل اتجاه المعركة لصالح المسلمين .

ويخبرنا العباس بن عبد المطلب عم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكان شاهد عيان فى المعركة أنه كان بجوار الرسول – صلى الله عليه وسلم – وكان ملازماً له مع أبى سفيان بن الحارث ، فلم يفارقاه مع تبدل حالة القتال ، وتراجع المسلمين . كان العباس يأخذ بلجام بغلة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الذى كان يركض بغلته قبل الكفار أى يسرع بها فى اتجاههم لمقاتلتهم ، وكان العباس يحاول أن يخفف من سرعة البغلة ..بيد أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – نادى على العباس قائلاً : " **أى عباس ، نادى أصحاب السمرة** ".

يقصد أن ينادى على الصحابة – رضوان الله عليهم – الذين كانوا قد بايعوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – تحت الشجرة ، وكانت شجرة سَمُر معروفة فى الجزيرة العربية . كان العباس رجلاً صيّتا ، أى جهورى الصوت ، يسمع البعير والقريب ، فنادى على الصحابة الذين لبوا النداء بسرعة شديدة ، و يشبه العباس هذه السرعة بسرعة رجوع البقر إلى أولادها " فوالله لكأن عطفتهم حين سمعوا صوتى عطفة البقر على أولادها " وعطفتهم أى رجوعهم ، وهنا نجد تصويراً بديعاً لسرعة عودة الصحابة إلى الميدان ، بسرعة الأم ولهفتها لتعود إلى أولادها ، واختيار البقر من واقع الحياة العربية يمثل اختياراً موفقا لتشبيهٍ رائع يدركه من عاش اللحظة الصعبة ، ورأى العدو يتقدم والمسلمين يتراجعون .

ولا ريب أن اختيار الرسول – صلى الله عليه وسلم – للعباس صاحب الصوت الجهورى ، وطلبه النداء على أهل الحديبية تحديداً ، يدل على عبقرية النبى الأعظم صلوات الله عليه وسلامه ، فالصوت الجهورى وسيلة اتصال فعالة فى معمعة القوات المولّية ، كما أن اختيار أهل الحديبية ، الذى بايعوا على النصرة والشهادة فى سبيل الله بعد أن حيل بين المسلمين ، ودخول مكة للعمرة ، يؤكد على أن نوعية هؤلاء المجاهدين تقف فى الدرجة الأولى من الإخلاص والرغبة فى

التضحية و البذل ، ولذا كانت " **عطفتهم** " أو رجوعهم السريع إلى الميدان ، حافزاً لبقية المسلمين المجاهدين على اللحاق بهم و الاقتداء بما فعلوا وتحويل مسار المعركة من اتجاه الهزيمة بالنسبة للمسلمين إلى اتجاه النصر و الظفر.

لقد كانت عودة المسلمين إلى القتال ذا دلالات عديدة ، منها : أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أثبت شجاعته و صلابته فى مواجهة المشركين ، ولم يهن أو يضعف أو يستسلم ، وهو ما ينبغى أن يدركه القادة العسكريون الميدانيون ، حين يواجهون اللحظات الصعبة التى يتقدم فيها ، ومنها أن هذه الوقفة الصلبة الشجاعة كانت حافزاً للمسلمين على اتباعه – صلى الله عليه وسلم – و الاقتداء به ، وهو ما عبر عنه هتافهم "يا ليبك ...يا لبيك " أى إجابة لك و طاعة يا رسول الله ، ومنها أن الجهاد ينبغى أن تكون القوة الأساسية فيه هى الإيمان بالله إيماناً كاملاً لا يتزعزع ، مهما كانت قوة العدو و ضراوته ، فالنصرة من عنده ، و الشهادة إليه ، وكلاهما مما يسرّ المسلم و يسعده فى الدنيا والآخرة، ومنها أن الإعجاب بكثرة عدد المقاتلين أو تفوق أسلحتهم أو غير ذلك من دواعى الإعجاب والغرور، لا تحقق النصر دائماً ، بل تكون مدعاة للهزيمة فى غالب الأحيان ، وهو ما جرى فى بداية معركة حنين ، حيث كانت المفاجأة صاعقة و قاهرة وولىّ المسلمون مدبرين ، أى هربوا من الميدان !

"يوم حنين " -٢

يحدثنا أبو الفضل العباس عبد المطلب - رضى الله عنه - عما جرى فى معركة حنين من مفاجأة جعلت المسلمين يولون الأدبار فى بداية المعركة ، وثبات الرسول -صلى الله عليه وسلم - فى الميدان ، حتى رجع المسلمون ، واصطفوا من حوله، ملبين نداءه . يقول عن المسلمين :

"فاقتتلوا هم والكفار ، والدعوة فى الأنصار يقولون : يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم قصرت الدعوة على بنى الحارث بن الخزرج ، فنظر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وهو على بغلته كالمتطاول عليها ، إلى قتالهم ، فقال :

" هذا حين حمى الوطيس "

ثم أخذ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - حصيات رمى بهن وجوه الكفار ثم قال : " **انهزموا ورب محمد** "

فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فوالله ما هو إلا رماهم بحصياته فما زلت أرى حدهم كليلا ، و أمرهم مدبراً .

....

لا ريب أن يوم حنين ، يمثل يوماً مشهوداً فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، فهو يقدم درساً بليغاً للمسلمين فى كل العصور والأماكن ، فحواه أن القوة ليست بالعدد و الكم ، فهي قبل ذلك منهج و كيف . فالذين اعتمدوا على الكثرة فوجئوا بما لم يكن فى الحسبان ، وولوا الأدبار بعد أن انهالت عليهم السهام والرماح من كل حدب و صوب ، ومع أنهم كانوا ثلاثة أضعاف المشركين ، فقد انهزموا فى بداية المعركة ، ورأى بعضهم أن اثنى عشر ألف مقاتل مسلم لابد أن يهزموا أربعة آلاف مشرك ، ولكن هذا الرأى خاب ، مع مباغتة العدوّ لهم . وقد عبرّ القرآن الكريم عن ذلك فى سورة التوبة **بقوله تعالى :-**

" .....وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا ۚ وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا ۚ وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ " **(سورة التوبة من ٢٥-٢٨)**

والعباس بن عبد المطلب ، حين يروى قصة الغزوة ، يكشف لنا عن طبيعة الإيمان الذى يكافئه الله بالنصر فى أحلك الساعات وأكثرها حرجاً . فقد كان ثباته – صلى الله عليه وسلم – وشجاعته ، وهو يقف وحيداً إلا من قلة قليلة حوله ، بداية المعجزة الإلهية والكرم الربانى بالنصر العظيم ، إذ تجمع المسلمون ، بعد أن أقبلوا عليه ورجعوا إلى الميدان وراحوا يقتتلون مع الكفار ، والرسول – صلى الله عليه وسلم – يرصد ما يجرى بين الفريقين ، ويقود ويوجّه ، فضلاً عن أنه يقاتل . لقد سمع الأنصار أو بعضهم **يقولون** : يا معشر الأنصار ، يا معشر الأنصار ، ثم اكتفت الدعوة أو القول :

"يا بنى عبد الحارث بن الخزرج" ، وكأن هذه الدعوة عودة إلى القبلية أو العشائرية التى تتناقض مع روح الإسلام وحرصه على أن يكون النداء إسلاميا ، والعمل إسلاميا والقتال إسلاميا أيضاً . ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – وجد تفسيراً لذلك القول ، بأنه بسبب شدة القتال وضراوته ، **فقال :**

" هذا حين حمى الوطيس "

والوطيس هو التنور، أو الفرن الذى يوقد لصناعة الخبز و نحوه ، و تكون ناره شديدة الإحراق ، فكذا يكون القتال حين يشتد ، يجعل الكلام فى اتجاه غير اتجاهه الصحيح وهو ما يمكن التسامح معه و التغاضى عنه .

ويشير العباس بن عبد المطلب – رضى الله عنه – إلى مشهد من مشاهد القيادة الإسلامية فى المعارك ، كان قدوتها الرسول – صلى الله عليه وسلم – و أشار إليها القرآن الكريم فى غزوة بدر، و تشير إلى رميه – صلى الله عليه وسلم – للكفار بالتراب أو الحصى تعبيراً عن القتال و الاستمرار فيه حتى نصرة الله . فى سورة الأنفال يقول الحق تبارك **وتعالى :**

"..... وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ " (سورة الأنفال من الآية ١٧)

وهنا يذكر العباس أن الرسول – صلى الله عليه وسلم – أخذ حصيات رمى بهن وجوه الكفار، ثم قال : " **انهزموا ورب محمد** " .

كان الرمى بالحصيات إشارة إلى الجهاد الظافر المستمر بإذن الله ، فقد شاهد – صلى الله عليه وسلم – أرض المعركة و الفريقان يقتتلان ، و المسلمون يستبسلون دفاعاً عن دينهم و عقيدتهم ، بعد أن عادوا إلى الميدان ، وهم أكثر تصميماً على النصر أو الشهادة وفق المنهج الإسلامى، الذى يربط النصر بالله، ويقبل الشهادة فى سبيل الله. ثم إن كلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن هزيمة المشركين " **انهزموا ورب محمد** " يأتى فى سياق البشارة النبويّة بانتصار المسلمين ، وهى بشارة مؤكدة بالقسم ، مما يعنى أن النصر قادم لا محالة .

ولا ريب فى نهاية الأمر، أن يوم حنين ، كان درساً بليغاً ، و تأديباً من الله تعالى للمسلمين الذين اغتروا بكثرتهم ؛ وأعجبوا بقوتهم . فانهزموا أول الأمر، وعندما عادوا إلى طبيعتهم الإيمانية الخالصة ، التى تُعِدّ للحرب و تنتظر النصر من الله، تحقق أملهم وفازوا على أعدائهم الذين صار حدهم كليلا و أمرهم مدبراً ، أى بأسهم ضعيفاً و شأنهم متفرقا منهزما . وصدق الله **إذ يقول :**

"...... إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ " (سورة محمد من الآية ٧)

طفل يحتضر

طفل يحتضر

عن أسامة بن زيد – رضى الله عنه – قال :

كنا عند النبى – صلى الله عليه وسلم – فأرسلت إليه إحدى بناته تدعوه ، وتخبره أن صبيًا لها أو ابنا لها فى الموت ، **فقال للرسول :**

" **ارجع إليها ، فأخبرها : أن لله ما أعطى ، ولله ما أخذ ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر و لتحتسب** " فعاد الرسول ، فقال : إنها قد أقسمت لتأتينها .

قال : فقام الرسول – صلى الله عليه وسلم – وقام معه سعد بن عبادة ، ومعاذ بن جبل ، و انطلقت معهم فرفع إليه صبى ، و نفسه تقعقع كأنها فى شنة ، ففاضت عيناه ، فقال له سعد : ما هذا يا رسول الله ؟

قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم :-

" **هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، إنما يرحم الله من عباده الرحماء** " . (حديث صحيح . أخرجه البخارى ومسلم و آخرون).

....

سلوك الرسول – صلى الله عليه وسلم – و أقواله و مواقفه ، تشريع لنا و قدوة و أسوة حسنة ، نسير على هديها ، ونعمل بمقتضاها ، ففيها ما يريحنا ، ويرشدنا إلى أفضل الطرق أو السبل لمواجهة ما يعترضنا ، أو يقلقنا ، أو يسبب لنا آلاما أو أحزانا أو متاعب .

وفى هذه القصة النبوية نجد صورة من الصور الكثيرة التى تقابل المسلم فى حياته اليومية و الإنسانية ، وهو فقد الأعزاء و الأحباب الذى يخلّف فى النفس مرارة و أسى .

تتناول القصة موقفا حدث فى بيت النبوة ، وهو أن إحدى بناته – صلى الله عليه وسلم - كان لها ابن يحتضر ، أى ينتظر الموت ، فأرسلت إليه تدعوه ليحضر وفاته ، فيدعو له ولكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قال لمن أرسلته :

" **ارجع إليها ، فأخبرها : أن لله ما أعطى ، ولله ما أخذ ، وكل شىء عنده بأجل مسمى ، فمرها فلتصبر و لتحتسب** "

وفى هذا القول النبوى دستور يسير عليه المسلم الذى يبتلى بفقد من يحب ، و إقناع عقلى وواقعى بضرورة تقبل قضاء الله و قدره ، دون تململ أو رفض أو غضب ، فالرسول – صلى الله عليه وسلم – يخبرنا ضمنا ، أو يبلغنا رسالة مهمّة ، تذكرنا بالبدء و الختام لحياة الإنسان ، وأن هذه الحياة ملك لله تعالى . فهو الذى أعطى الحياة و أعطى النعم ، وليس معنى العطاء الخروج عن ملكيته و إرادته ، ولكنه يظل تحت الهيمنة الإلهية ، سواء بالمنح

أو المنع ، فهو حين يهب الحياة لمخلوق ، فهو يعطى داخل ملكه وحين يسحب هذه الحياة فهى تعود إليه أيضا داخل ملكه ، وهو معنى لله ما أعطى ولله ما أخذ " ، كل شئ لله وليس لغيره ، ويقتضى ذلك التسليم بهذه الحقيقة ولوكانت مؤلمة و قاسية .

ومع تأكيد هذه الحقيقة ، فإن الرسول – صلى الله عليه وسلم – يدرك طبيعة النفس البشرية ، فى مشاعرها و أحاسيسها ، وخاصة تجاه الأبناء أو فلذات الأكباد ، ولذا يقول للرسول الذى أرسلته إليه ابنته : " **فمرهـا فلتصبر و لتحتسب** " . وهذا الأمر بالصبر و الاحتساب ، لا يأتى عبثا أو اعتباطا ، ولكنه يأتى تعبيراً عن الإيمان و الطاعة فالمؤمن لابد أن يؤمن بالقدر خيره وشره ، و الموت قضاء و قدر ، لا حيلة للبشر فيه ، ولا يستطيع أحد أن يؤخره أو يقدمه ، أو هو كما قال الرسول – صلى الله عليه وسلم – " **وكل شئ عنده بأجل مسمى** " ، وهنا يأتى الصبر و الاحتساب تعبيراً عن الإيمان و الطاعة .

الصبر يعنى التسليم بقضاء الله وقدره ، وعدم الجزع ، و الاحتساب هو انتظار الثواب من الله سبحانه وتعالى ، وقد يكون هذا الثواب بتثبيت المؤمن فى الدنيا ومساعدته على احتمال الفراق وفقد الأحبة ، وقد يكون فى الآخرة بإجزال المثوبة و الرضا عنده سبحانه و تعالى .

ويبدو أن قلب الأم ، وهى ترى ابنها يغادرها و يفقدها و تفقده ، يحتاج إلى من يقويه و يسانده فتقسم على أبيها – وهو الرسول – صلى الله عليه وسلم – أن يأتيها و يحضر إلى بيتها ، وهنا نرى الرسول الأب يرق لابنته ، ويذهب إليها مع أسامة بن زيد وسعد بن عبادة ، ومعاذ بن جبل ، فيرفع إليه الصبى المحتضر ، وروحه تضطرب فى صدره و يصدر عنه صوت حشرجة كصوت الماء حين يلقى فى قربة بالية ، أو كما ورد فى الحديث " **نفسه تقعقع كأنها فى شنة** " ، وهنا تفيض عينا الرسول – صلى الله عليه وسلم – فيسأله سعد بن عبادة : ما هذا يا رسول الله ؟

فيرد عليه الرسول الكريم – صلى الله عليه وسلم – " **هذه رحمة جعلها الله فى قلوب عباده ، إنما يرحم الله من عباده الرحماء** " .

إذا هى الرحمة ...هى التعاطف الإنسانى ، هى المشاعر الإنسانية فى ذروتها ، تجمع الشفقة و المواساة و البكاء من غير نوح أو ندب أو غضب ، و المشاركة فى المصائب و المحن والآلام ، وصدق الله العظيم إذ يقول عن رسوله الكريم .

" ....بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ "

(سورة التوبة من الآية ١٢٨)

أصحاب السفينة

أصحاب السفينة -١

عن أبى موسى الأشعرى – رضى الله عنه – قال :

بلغنا مخرج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونحن باليمن ، فخرجنا مهاجرين إليه، أنا و أخوان لى أنا أصغرهما، أحدهما : أبو بردة، والآخر: أبو درهم .

إما قال: بضعاً، وإما قال: ثلاثة و خمسين، أو اثنين وخمسين رجلاً من قومى.

فركبنا سفينتنا ، فألقتنا سفينتنا إلى النجاشى بالحبشة ، فوافقنا جعفر بن أبى طالب ، وأصحابه عنده ، فقال جعفر : إن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعثنا ههنا وأمرنا بالإقامة ، فأقيموا معنا ، فأقمنا معه حتى قدمنا المدينة جميعاً .

قال : فوافقنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حين افتتح خيبر ، فأسهم لنا وما قسم لأحد غاب عن فتح خيبر منها شيئاً ، إلا لمن شهد معه ، إلا لأصحاب سفينتنا مع جعفر و أصحابه ، قسم لهم معهم .

فكان ناس من الناس يقولون لنا : نحن سبقناكم بالهجرة .

قال : فدخلت أسماء بنت عميس ، وهى ممن قدمن معنا على حفصة زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – زائرة ، وقد كانت هاجرت إلى النجاشى فيمن هاجر إليه، فدخل عمر على حفصة و أسماء عندها، فقال عمر حين رأى أسماء : من هذه ؟

قالت : أسماء بنت عميس .

قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟

فقالت أسماء : نعم .... (حديث صحيح أخرجه البخارى و آخرون).

....

هذا الحديث الشريف يروى طرفاً من جهاد المسلمين فى مطلع الدعوة الإسلامية وهو جهاد لم يكن بالسيف و الدم بقدر ما كان بالشعور و الإحساس ... وجهاد الشعور والإحساس من أشد أنواع الجهاد و أقساها ، لأنه جهاد داخلى يتعلق بطبيعة الإنسان ونفسيته و تصوره ...و القصة النبوية الشريفة تقدم لنا هذا النوع من الجهاد الذى قام به المسلمون بحثاً عن ملجأ آمن لدعوتهم ، و اغتراباً عن ديارهم، وبعداً عن أهليهم وذويهم .. وكما يعلم الناس ، فإن من أصعب الأمور على النفس وأشقها أن تترك موطنك وأهلك وتذهب إلى بيئة جديدة لا يعرفك فيها أحد، ولا يتعاطف فيها معك أحد ولا تدرى ماذا سيكون مستقبلك أو مصيرك . أليس ذلكم جهاداً قاسياً ؟

نعم ، إنه جهاد قاس و شاق لا يدفع إليه ولا ينهض به إلا مؤمن امتلك عليه الإيمان قلبه و يقينه و مشاعره .

لقد أرغم المسلمون فى بداية الدعوة على الهجرة ، بسبب الأذى الذى لحقهم من المشركين وكفار مكة ، وهو أذى تجاوز قدرة المسلمين على التحمل و الصبر ، فقد كان هناك تعذيب و حصار و ملاحقة و سب و قذف و معايرة ، وقد قرأنا كثيراً عن صور هذا الأذى التى أودت بأسرة عمار بن ياسر ، وكادت تودى ببلال بن رباح ، وأصابت عدداً لا يستهان به من المسلمين و خاصة ضعفاؤهم ، مما كان سيترتب عليه لو استمر المسلمون فى مواجهته إلى نهايتهم و نهاية الدعوة جميعاً ..

وكانت الهجرة الأولى إلى الحبشة ، بوصفها أرضا يملكها ملك لا يظلم الناس عنده وهو النجاشى ، وقد ذهب إليها عدد كبير من المسلمين قضوا فيها زمناً حتى كانت الهجرة الكبرى إلى المدينة المنورة بقيادة رسول الله -صلى الله عليه وسلم- و صاحبه الصديق أبى بكر رضى الله عنه ..

فى قصتنا هذه يحكى أبو موسى الأشعرى - رضى الله عنه - قصة هجرته ومن معه إلى الحبشة حيث وجدوا هنالك الصحابى الجليل جعفر بن أبى طالب ومعه أصحابه المهاجرين من قبل ، فأقاموا معهم حتى جاء موعد الهجرة الكبرى ، فتركوا الحبشة وعادوا إلى المدينة ، واتفق ذلك مع فتح خيبر ، وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - يقسم الغنائم التى غنمها المسلمون من المعركة ، فجعل لهؤلاء العائدين من الحبشة سهماً فى الوقت الذى لم يخصص فيه للغائبين عن خيبر أى سهم أو نصيب ..وهنا بدأ اللغط يثور بين فريق من الناس الذين كانوا يريدون سهما من الغنائم أسوة بالعائدين من الحبشة ، وكانوا يحتجون بسبقهم إلى الهجرة إلى المدينة المنورة ...ويقولون للعائدين من الحبشة : نحن سبقناكم بالهجرة .

لم تتوقف المسألة عند الاحتجاج ، ولكننا نرى نقلة أخرى فى القصة النبوية تكشف عن فضل الصحابة رضوان الله عليهم، ودورهم الريادى فى الهجرة والتضحية سواء فى الحبشة أو المدينة ، فقد دخل عمر بن الخطاب إلى بيته ليجد أسماء بنت عميس لدى ابنته حفصة زوج الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيسأل عنها ويصفها بالحبشية و البحرية .. فتؤمن أسماء على وصفه **و تقول : نعم** .

ولكن عمر - رضى الله عنه - يتحدث معها عن أفضلية المهاجرين إلى المدينة، وسبقهم عن غيرهم وترد عليه أسماء رداً مفحماً يسجله التاريخ ، و يقف الرسول - صلى الله عليه وسلم - إلى جانبها ، فى حوار مهم و مثير نتعرف عليه في السطور التالية إن شاء الله .

أصحاب السفينة -٢

عندما تساءل عمر بن الخطاب رضى اللّه عنه عن أسماء بنت عميس . وعرفها. قال:

سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله - صلى الله عليه وسلم - منكم . فغضبت و قالت كلمة كذبت يا عمر ، كلا و الله ، كنتم مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يطعم جائعكم و يعظ جاهلكم ، وكنا فى دار أو فى أرض البعداء فى الحبشة ، و ذلك فى الله ، وفى رسوله .

وأيم الله ، لا أطعم طعاماً ، ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - و نحن كنا نؤذى و نخاف ، وسأذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - و أسأله .

ووالله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد على ذلك .

قال أبو موسى الأشعرى : فلما جاء النبى - صلى الله عليه وسلم -

قالت : يا نبى الله ، إن عمر قال كذا وكذا ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم : " **ليس بأحق بى منكم ، وله و لأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان** " .

قالت : فلقد رأيت أبا موسى ، و أصحاب السفينة يأتونى أرسالاً يسألون عن هذا الحديث ، ما من الدنيا شىء همْ به أفْرح ولا أعظم فى أنفسهم مما قال لهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم .

قال أبو بردة:فقالت أسماء:فلقد رأيت أبا موسى وإنه ليستعيد هذا الحديث منى.

....

كان ناس من الناس يقولون تعليقا على تخصيص سهم لأصحاب السفينة الذين هاجروا إلى الحبشة ورجعوا مع جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه : نحن سبقناكم فى الهجرة ، موجهين خطابهم إلى أصحاب السفينة ، معتقدين أن الهجرة إلى المدينة هى المقدمة على الهجرة إلى الحبشة ، أو إن أصحاب الأولى مقدمون على أصحاب الثانية وكان الرسول - صلى الله عليه وسلم - قد خصص سهما لمن حضر غزوة خيبر و أصحاب السفينة دون غيرهم ، وهو ما جعل بعض المهاجرين إلى المدينة ممن لم يفوزوا بشىء يرون أنهم أحق من أصحاب السفينة و أنهم سبقوا بالهجرة إلى المدينة .

ودخل عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - فى حوار مثير مع أسماء بنت عميس - رضى الله عنها - حول هذه المسألة ، أسبقية الهجرة ، و الأحقية مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم - وهو حوار يكشف عن وعى المرأة الصحابية ، و منطقها السليم و لجوئها إلى

الاحتكام إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – و يؤكد على أن الإسلام لم يجعل المرأة كماً مهملاً،أو شيئاً زائدا عن الحاجة،كما يردد بعض من لم يدرسوا الإسلام،أو يفهموه فهماً حقيقياً.

عمر يخوض معركة فكرية أو منطقية مع أسماء بنت عميس ، ليقنعها أن الهجرة إلى المدينة تحقق الأسبقية لأصحابها على من هاجروا إلى الحبشة ...ولكن أسماء ترد عليه و تدحض منطقة .

يقول عمر:سبقناكم بالهجرة،فنحن أحق برسول الله – صلى الله عليه وسلم- منكم .

ولكن أسماء تغضب ، و ترد عليه بحدة . كذبت يا عمر. كلا و الله . وتشرح منطقها شرحاً عقلياً مقنعاً ، فتقول له : كنتم مع رسول الله -صلى الله عليه وسلم- يطعم جائعكم ويعظ جاهلكم، و كنا في دار أو في أرض البعداء في الحبشة،وذلك في الله وفي رسوله.إنها تقارن بين من كان يستمتع بصحبة الرسول – صلى الله عليه وسلم – و يحظى بعطفه ورعايته ، و يستفيد بعلمه و موعظته ..ومن ذهب بعيداً إلى أرض بعيدة تاركا الأهل والوطن، و يعاني شظف العيش و الحياة ، من أجل الله ومن أجل رسوله – صلى الله عليه وسلم . لاشك أن الفارق كبير بين الفريقين أولهما محظوظ بالقرب من الرسول – صلى الله عليه وسلم ، و الآخر غير محظوظ يعاني و يتألم ...فأيهما أفضل و أسبق ....ولا شك أنه الفريق الذي تحمّل ، وصبر على الحرمان و المشقة .

ولا تتوقف أسماء بنت عميس عند هذه المفارقة ، بل تقسم أنها لن تذوق طعاماً ولن تشرب شرابا حتى تعرض المسألة – أي كلام عمر – على الرسول – صلى الله عليه وسلم – لتحكمه فيما قال ، و تستوضح الحق من الباطل في كلامه .

وتستدرك في مرافعتها العقلية المنطقية، فتقول: ونحن كنا نؤذي و نخاف... أي إن المهاجرين إلى الحبشة كانوا يتعرضون للأذى و يعيشون الخوف ، وهو أمر يسوغ لأهل السفينة أن يكونوا أسبق في الهجرة ممن هاجروا إلى المدينة ...وسوف نلاحظ أن هذه الأسبقية ليست زمنية ، بقدر ما هي أفضلية في القيمة و المفهوم . وتؤكد أسماء إصرارها على الاحتكام إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وتقسم أنها لا تكذب ولا تزيغ ولا تزيد..

و يحسم الرسول -صلى الله عليه وسلم الموقف لصالح أسماء و المهاجرين إلى الحبشة و يسجل لهم سبقهم و أفضليتهم " ليس بأحق بي منكم . وله و لأصحابه هجرة واحدة . ولكم أنتم أهل السفينة هجرتان " صدقت يا رسول الله . أنصفت أسماء على عمر، وجعلت له ولأصحابه هجرة واحدة ، أما أسماء و أصحاب السفينة فلهم هجرتان . استطاعت أسماء أن تكسب القضية بمنطقها و عقلها ، وأن تسجل جهاداً لا ينكر للمرأة المسلمة بجانب الرجل المسلم ...وفي الوقت ذاته تثبت هذا التنافس العظيم المشروع بين المسلمين الأوائل من أجل الإسلام ، طاعة لله ورسوله ، رضي الله عنهم أجمعين .

غلامان أنصاريّان

غلامان أنصاريّان - ١

عن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - قال :

بينما أنا واقف فى الصف يوم بدر، نظرت عن يمينى و شمالى ، فإذا أنا بغلامين من الأنصار حديثة أسنانهم ، تمنيت أن أكون بين أضلع منهما . فغمزنى أحدهما ، فقال :

- يا عم ، هل تعرف أبا جهل ؟

- **قلت :** نعم ، ما حاجتك يا ابن أخى ؟

- **قال :** أخبرت أنه يسبّ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - و الذى نفسى بيده لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا . فتعجبت لذلك ، فغمزنى الآخر فقال لى مثلها ، فلم أنشب أن نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس ، قلت : ألا إن هذا صاحبكما الذى سألتمانى ، فابتدراه بسيفيهما فضرباه حتى قتلاه ، ثم انصرفا إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم - فأخبراه .

- **قال : " أيكما قتله ؟ "**

- **فقال كل واحد منهما :** أنا قتلته .

- **فقال :** هل مسحتما سيفيكما ؟"

- **قالا** : لا ، فنظر فى السيفين ، فقال : " **كلاكما قتله** " .

- وقضى بسلبه لمعاذ بن عمرو بن الجموح . وكانا معاذ بن عفراء ، ومعاذ بن عمرو بن الجموح . **(حديث صحيح ، أخرجه البخارى و آخرون).**

....

تحكى هذه القصة النبوية مصرع عدو الإسلام الأول " **أبو جهل** " فى غزوة بدر ويمثل مصرعه نقطة حاسمة فى تاريخ الإسلام . فقد كان بداية لانتصار المسلمين لأول مرة وأخذهم زمام المبادرة فى مواجهة المشركين و الكفار الذين أرغموا المسلمين على الهجرة فرار بدينهم ، وسعياً إلى مكان آمن يقيمون فيه شعائر الدين بحرية

ودون خوف أو ملاحقة أو حصار ...لقد هاجر المسلمون مرتين : مرة إلى الحبشة وأخرى إلى المدينة المنورة ، وفى المرتين دفعوا ثمنا غاليا و باهظاً بسبب الكيد الذى يكيده المشركون بقيادة أبى جهل ...فتركوا ديارهم و أوطانهم و أهلهم وذويهم فضلاً عن ممتلكاتهم و ثرواتهم وذهبوا إلى مكان غريب عليهم ، و أناس لم يألفوهم وطبائع لم يعرفوها، مجردين من كل شىء: القوة والمال والأتباع ...كل ذلك بسبب ما يلاقونه فى مكة من قهر و اضطهاد و أذى ...كان أبو جهل هو المخطط له و المحرضّ عليه .

إن تاريخ أبى جهل مع الدعوة الإسلامية ملىء بمواقفه العدوانية التى لم تراع حرمة القرابة، ولم تخضع لمروءة،ولم تنبىء عن شهامة..بل كانت خسة ونذالة وإجراما.

لقد قاد أبو جهل عمليات الإيذاء و الإهانة للمسلمين و ملاحقتهم ، وتعذيب العبيد الذين أسلموا حتى يرجعوا إلى عبادة الأصنام و الأوثان ...ثم كانت عمليته الخطيرة الشيطانية التى دبّر فيها لقتل الرسول – صلى الله عليه وسلم – ليلة الهجرة، حيث جمع الشبان الأشداء من قريش ، لينزلوا عليه بسيوفهم فى ضربة رجل واحد ، حتى يتفرّق دمه فى القبائل ، ولكن الله سبحانه و تعالى أنجاه وحفظه حتى وصل إلى يثرب أو المدينة المنورة سالماً معافى .

كان أبو جهل و اسمه " **عمرو بن هشام** " ، زعيماً فى قومه ، و يجمع إلى المكانة القدرة على القيادة و التخطيط و التنفيذ ، ولذلك كان يقول عنه الرسول – صلى الله عليه وسلم – اللهم انصر الإسلام بأحد العمرين : عمرو بن هشام ، أو عمر بن الخطاب . وقد استجاب الله لدعاء النبى – صلى الله عليه وسلم – فنصر الإسلام بعمر بن الخطاب ، دون عمرو بن هشام الذى هو أبو جهل ...لأن الفارق بين العمرين كبير ؛ يتمثل فى الاستسلام للحق عند ظهوره ، و المكابرة فى رفضه .

عمر بن الخطاب ، مع شدته و ضراوته على المسلمين وهو فى جاهليته ، تراضخ للحق و قبل به ، و أعلن إسلامه . لقد هجم على بيت أخته ، فوجد نفراً من

المسلمين يتلون القرآن الكريم ، وحاول أن يأخذ منها الصحيفة التى تقرأ فيها ، ولكنها رفضت فضربها حتى آدماها ، و أصرت على أن يغتسل قبل أن يلمس الصحائف القرآنية . فامتثل و اغتسل وراح يقرأ فى سورة طه ، ووجد لكلام السورة نظما لا يعرفه البشر ، ودلالة لا تكون إلا من عند الله ، فأخذ من فوره يسأل عن مكان محمد ...وذهب و أعلن إسلامه .

هذا هو عمر بن الخطاب الذى اكتشف الحق و عرف الحقيقة فآمن من فوره ، دون تردد أو وضع حسابات معينة فى الاعتبار.

أما عمرو بن هشام ، أو أبو جهل ، فكان يعرف الحق و الحقيقة ، ورأى من الآيات والعلامات ما يؤكد أن محمداً – صلى الله عليه وسلم – رسول من رب العالمين ، وأن القرآن معجزته الخالدة ، ولكنه أبى و استكبر ، ورفض أن يدخل إلى دائرة الإيمان ، ولم يكتف بذلك ، بل راح يخطط للتآمر على الإسلام و المسلمين ، والنبى وأصحابه ، ولم يكتف بما فعله فى مكة مع المسلمين و نبيهم – صلى الله عليه وسلم – بل راح يقود المشركين من قريش و حلفائهم - ليقضى على الإسلام فى غزوة بدر! ولكن تأتى الرياح بما لا يشتهى السَّفِنُ، وحدث عكس ما كان ينتظره أبو جهل..

غلامان أنصاريان -٢

حدثنا عبد الرحمن بن عوف -رضى الله عنه- عن قصة الغلامين الأنصاريين اللذين كانا يتنافسان على قتل أبى جهل ، لأنهما علما أنه سب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وبعد أن ظفرا به احتكما إلى الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليحكم لهما فيمن قتله.. ونتابع أحداث القصة بعد أن عرفنا طبيعة أبى جهل وموقفه من الإسلام و المسلمين .

....

لم يكن أبو جهل إلاً شريراً شرساً ، يعرف الحق ، ولكنه لا يعترف به ، ولا يتراضخ له ولا ينزل عنده ، ولم يكتف بذلك ، بل آذى الرسول -صلى الله عليه وسلم- إيذاءً شديداً وسبّه سبّاً مقذعاً ، بغرض النيل منه و الحط من قدره و التقليل من شأنه ، ولكن الله كان يدخر لأبى جهل نهاية تليق بشره و إجرامه ، وهى قتله على يد الغلامين الأنصاريين فى معركة بدر التى ظن أنه سيقضى فيها على الإسلام والمسلمين ، ولكن خاب سعيه ، فقتل هو و عدد من أساطير الكفر ، و انتصر الإسلام وارتفعت رايته فى أول معركة يخوضها المسلمون مع المشركين والكفار.

إن عبد الرحمن بن عوف - رضى الله عنه - يصف لنا الغلامين الأنصاريين فيقول إنهما فى سنّ الحداثة، وتمنى أن يكون واحداً مثلهما فى القوة والشدة، أو داخل الأقوى أو الأضلع منهما .

الغلامان يتوثبان حركة و نشاطا بحكم حداثة السنّ ، و يتساءلان فى همة و لهفة :

" يا عم هل تعرف أبا جهل ؟ "

لقد لجأ إلى عبد الرحمن بن عوف الأكبر سنا وتجربة يسألانه عن الشخص الذى يشغلهما و يملك عليهما تفكيرهما ، و يحتشدان من أجله فى ميدان المعركة ،

وهو "أبو جهل" ، وحين يسألهما عبد الرحمن بن عوف عما يريدانه منه ، أو عن حاجتهم إليه . يقول أحدهما بوضوح قاطع :

" أخبرت أنه يسبّ رسول اللّه – صلى اللّه عليه وسلم ، و الذى نفسى بيده ، لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده حتى يموت الأعجل منا ".

القضية إذاً هى سبّ الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – من جانب أبى جهل ، و السبّ خلّة قبيحة يرفضها العرب منذ الجاهلية ، و أكد على رفضها الإسلام ، وقد وصف الرسول – صلى اللّه عليه وسلم – المسلم بأنه ليس سبابا ولا لعانا ولا فاحشا ولا بذيئاً ...المسلم إذا يتطهر من هذه الخلال و الصفات ، لأنها تلوثه و تلوث من تقع عليه . والإسلام يحرص على طهارة المسلم ماديا و معنوياً ..ومن ثمّ كان سباب أبى جهل للنبى – صلى اللّه عليه وسلم – نوعاً من التلويث و التدنيس يجب استئصاله والخلاص منه ، لأنه يتعارض مع الأخلاق التى تواضع عليها العرب منذ جاهليتهم ، وخروج على قيم النبل والفروسية التى ينبغى أن يتحلى بها المحاربون مع خصومهم، وأبو جهل تخلى عن هذه القيم ، ورأى الغلامان أن يثأرا للرسول – صلى اللّه عليه وسلم .

وكان التعبير لدى الغلام الأول حاسماً، حيث أقسم باللّه "و الذى نفسى بيده" واستخدام هذه الصيغة يكشف لنا أن الغلام يدخل معركة الثأر وهو يدرك أنه يمكن أن يقتل أو يموت أو يفقد روحه ، ولأنه مسلم و مؤمن عميق الإيمان ، فهو على يقين أن أجله موقوت بميقات لا يتخلف ، ولذا يقدم على عمله وهو مطمئن إلى أنه لن يموت قبل الموعد المقدور...وهو ما بدا أيضا فى تصميمه و إصراره على الاستمرار فى مقارعة ...أبى جهل حتى يموت الأعجل منهما ، أى الأقرب أجلا . ولذا يقول : لئن رأيته لا يفارق سوادى سواده ، أى لا يفارق شخصى شخصه ، ولا جسدى جسده حتى يأتى الموت لمن قدر اللّه موته أولا .

هذا التصميم وذلك الإصرار من جانب الغلام الأنصارى الأول يثير التعجب لدى عبد الرحمن بن عوف، وخاصة حين يرى الغلام الأنصارى الثانى يفعل مثل الأول .

يقول عبد الرحمن:"فلم أنشب، أى لم ألبث، حتى نظرت إلى أبى جهل يجول فى الناس، أى يتحرك فى الميدان، قلت: ألا إن هذا صاحبكما الذى سألتماني ، يقصد أبا جهل فابتدراه بسيفيهما ، أى سارعا إليه بضربة بسيفيهما فى الحال ، فقتلاه" .

و هكذا ثأر الغلامان الأنصاريان ممن سبّ رسول الله –صلى الله عليه وسلم– و لقنا السباب الفاحش درساً . يعتبر به أمثاله . و هكذا يكون الحبّ للرسول – صلى الله عليه وسلم – و الوفاء له بالتضحية من أجله و التصدى لمن يعتدى عليه ، وبذا يتحقق معنى الحديث الشريف الذى ينفى صفة الإيمان عن المسلم الذى لا يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما .

لقد أخبر الغلامان الرسول – صلى الله عليه وسلم – بما حدث ، فسألهما : أيكما قتله ؟ قال كل منهما : أنا قتلته . فسألهما : هل مسحتما سيفيكما ؟ لأن مسح السيف يعنى انعدام الدليل على القتل . قال الغلامان : لا . أى إنهما لم يمسحا سيفيهما فقال : كلاكما قتله .

وقضى بسلب أبى جهل لمعاذ بن عمرو بن الجموح وهو أحد الغلامين الأنصاريين الذى سبق إلى ضرب أبى جهل . وكان الغلام الثانى هو معاذ بن عفراء . رضى الله عن الصحابة أجمعين ، فقد أحبوا الله ورسوله أكثر من أنفسهم .